

صراعات طريق الحرير بين الماضي والحاضر

سلاح الديون ومعركة الموانئ

جهينة حبيب الحاج حمود

ماجستير مصارف إسلامية

الحلقة (١ / ٢)

كان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية في العالم، وأكثرها أهمية بعد أن مثّل للعالم شرياناً رئيسياً للتفاعل الثقافي والتجاري في مناطق أوراسيا (أوروبا وآسيا) المختلفة، حيث كان طريقاً لتبادل الأفكار والتقنيات وسبيلاً للتجارة بين الأمم والشعوب القديمة، فلم يكن ممراً تجارياً فحسب، بل يُعتبر جسراً ورابطة للتبادلات الإنسانية والفكرية بين الشرق والغرب وبين الصين والدول الأجنبية، متجاوزاً الاقتصاد العالمي إلى آفاق إنسانية أخرى فانقلبت عبره الديانات فعرف العالم من خلاله البوذية وعرفت آسيا الإسلام حيث ساهم بدور بارز ومهم في نشر الإسلام، كما انتقل عبره البارود والورق والمواد الخام الأولية التي مهدت الطريق للثورة الصناعية، وأنماط من النظم الاجتماعية التي لولاه كانت ستظل مدفونة في مناطق وسط آسيا، وبذلك الانتقال عرفت الأمم الحروب المحتدمة المدمرة وحدثت نقلة كبرى في تراث الإنسانية مع النشاط التدويني الواسع الذي سهّل الورق أمره لأن صناعة الورق أخذت طفرة في التراث الإنساني والمعرفي، ولكن بقي النشاط الاقتصادي هو العامل الأهم والأكثر أثراً، إذ كانت تجارة المنسوجات الحريرية وغيرها من البضائع والمنتجات المتبادلة عبر مسارات الطريق سبباً رئيساً لازدهار كثير من الحضارات القديمة التي أرسدت قواعد العصر الحديث.

قامت الصفوف الشعبية بصورة عفوية بتشكيل وتطوير وتحويل طريق الحرير إلى طريق للتبادل ليُصبح شبكة عالمية ضخمة للمواصلات والتجارة، حيث لم يكن طريقاً محدوداً وإنما كان شبكة ضخمة ومعقدة للطرق التجارية التي يبدو كأنها شريط حريري يرف ويتلوى في الأراضي الأوروآسيوية الممتدة، فكان الممر التجاري البري ينطلق من الصين القديمة متجهاً إلى جنوب آسيا وغرب آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا مروراً بآسيا الوسطى، وبالتزامن مع وجود طريق الحرير البري ازدهرت مجموعة طرق تجارية بحرية ربطت الصين ومناطق في آسيا وأفريقية، حيث أتت التجارة البحرية بإيرادات هائلة ومعادن ثمينة جعلت "الثورة التجارية" في الصين القديمة تدخل مرحلة الازدهار، فحقق بذلك طريق الحرير البحري توسعاً إلى أرجاء العالم ودخل فترة ذروة ازدهاره خاصة في عهد أسرة مينغ، مما أثار ذلك حماسة العالم الغربي في إجراء الرحلات البحرية لغرض اكتشاف الحضارة الشرقية، وبالتالي كسبت الصين من خلاله فوائد كثيرة حيث

كانت البضائع التي يتم تبادلها وفيرة ومتنوعة، فقد نالت المنتجات الصينية بما فيها الخزف والشاي والأواني الحديدية والأشغال الذهبية والفضية والمرايا إقبالاً كبيراً في المناطق الغربية، كما كان الحرير الصيني يُعد واحداً من أتمن المنتجات الفاخرة والأكثر السلع انتقالاً إلى الخارج وأكبرها حجماً وأعلىها قيمة (حيث كاد سعره يساوي سعر الذهب) وأكثرها ربحاً في التجارة القديمة بين الشرق والغرب¹، فقد بدأ الغرب يعرف الصين جراء انتقال الحرير الصيني إلى الخارج وذلك في عهد أسرة "تانغ" حيث بلغت ذروة صناعته وازدادت أساليب نسجه في عهدهم، كما ورثت المنسوجات الحريرية في عهد أسرة "مينغ" تقاليد بأنواع متعددة فاجتذبت تجار مختلف بلدان العالم بنوعيتها الممتازة، وبذلك أصبح الحرير أهم السلع التي تاجرت بها الصين مع الشعوب الأخرى وبدأ ينتشر في العالم، حيث كانت التجارة المزدهرة لمنسوجات الحرير بشتى أشكالها تُسهم في تطوير الرحلات البحرية وتقنيات بناء السفن، وكسر العراقيل والحواجز الجغرافية، مما ساعد في تعزيز التواصل والتبادل بين مختلف دول العالم، وبذلك كان علماء الجغرافيا الرومان يطلقون على الصين اسم "بلد السيركا" أو "سيركا" التي تعني باليونانية "دودة القز" أو "الحرير"، وإلى جانب الحرير أعجب الغرب ببضائع متنوعة منها خزفيات الصين ومنتجاتها ذات الجاذبية الشرقية، فخرجت هذه المنتجات من الصين وجنوب شرق آسيا إلى أواسط آسيا وشمال أفريقية ووسط أوروبا في مسارات تجارية وحضارية محددة.

كما انتقلت إلى الصين بعض النباتات والأواني الزجاجية من روما منذ بداية عهد أسرة "هان"²، وانتقلت الموسيقى والرقص والأطعمة والملابس ذات الميزات الخاصة من آسيا الغربية والوسطى منذ عهدي أسرتي "وي" و"جي" حتى عهد أسرتي "سوي" و"تانغ"³، وذلك مع دخول أهل "سوته" المنتمين إلى سلسلة الثقافة الفارسية إلى الصين بأعداد كبيرة.

1 ويكفي لبيان أثره وأهميته أنه أدى إلى تراكم المخزون العالمي من الذهب في الصين حتى أنه بحلول القرن العاشر الميلادي أصبحت الصين وحدها تملك من مخزون الذهب قدرًا أكبر مما تمتلكه الدول الأوروبية مجتمعة.

2 أسرة "هان" استمرت من (٢٠٦ ق.م حتى ٢٢٠م) وهي سلسلة من الأباطرة حكمت الصين لمدة تزيد على ٤٠٠ سنة، وازدهرت تحت حكم آل هان، العلوم والآداب، وأصبحت الصين واسعة وقوية مثل الإمبراطورية الرومانية، ولا يزال الصينيون يُسمون أنفسهم آل هان، وذلك اعترافًا بالإنجازات التي حققتها الصين خلال تلك الفترة.

3 خلفت أسرة "تانغ" في الحكم أسرة "سوي"، وكان أول حاكم منها هو (لي يوان) الذي كان يشغل منصباً مهماً في عهد أسرة "سوي" ومع أنه حول إجراء إصلاحات إدارية، وأنشأ مصانع لصك العملة، وأعاد تنظيم القوانين في الدولة، فإن عهده اتصف باضطرابات وحروب أهلية وتنازع على السلطة بين النبلاء، وفي خضم هذه الأحداث برز الحاكم الثاني من هذه الأسرة، وهو (لي شي مين) المعروف باسم (تاي تسونغ)، فأجبر أباه (لي يوان) على النزول عن الحكم، وما لبث أن صار أقوى حاكم في تاريخ الصين القديمة، أحل (تاي تسونغ) السلام بين النبلاء المتناحرين، وقضى على منافسيه على العرش، ووحد أنحاء الإمبراطورية، وتوسع نحو التبت وبتركستان، وشق طرقاً ربطت الصين بالهند وآسيا الوسطى، مما شجع التبادل التجاري والثقافي، و زاد ثراء الإمبراطورية زيادة ملحوظة.

وبذلك كان طريق الحرير منذ بدايته الممتد عبر الطرق البرية والبحرية التي تربط شرق آسيا وجنوب شرق آسيا بجنوب آسيا وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية والشرق الأدنى وشرق أفريقيا وجنوب أوروبا وهي مناطق متباينة الموارد وأيضاً الثقافات، حيويًا للغاية لأنه أدى إلى شبكة من التبادل التجاري والثقافي بين الممالك والإمبراطوريات المختلفة مُعتبراً بذلك ممرًا اقتصادياً مهماً لما يقرب خمسة عشر قرناً تمكن من ربط المناطق الرئيسية في العالم المعروفة حينها، حيث شهد قيام العديد من المراكز التجارية العالمية، تاجرت فيها العديد من الشعوب، ودفع التنافس فيما بينها لافتتاح فروع عدة لهذا الطريق، الذي أزهرت على جنباته الحضارات، وتصارعت في سبيل السيطرة عليه الممالك والإمبراطوريات، كما كان له دور عظيم في التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب المختلفة الثقافات والديانات والمذاهب الفكرية، لاسيما أن التبادل التجاري ومنذ أقدم العصور كان أقوى وسائل الاتصال بين الجماعات البشرية، وبذلك أصبح طريق الحرير قناة رئيسية لتقاسم الإنجازات والتقدمات التي حققها الإنسان، حيث نالت كثير من الاختراعات ذات الأهمية التاريخية استخداماً واسع النطاق في العالم كله عبر طريقه البري والبحري، الأمر الذي سرّع خطا تقدم البشرية إلى الأمام، لأنه يُعد ممرًا يربط الأنشطة التجارية والتبادلات الثقافية في أوروبا وآسيا وأفريقية حتى أرجاء العالم، فتحلّى بأهمية كبيرة في نواح متعددة بما فيها الجغرافية والاقتصادية والثقافية.

ومع ذلك التطور الذي شهده هذا الطريق كان يتعرض لفترات من الازدهار تارةً والركود تارةً أخرى معتمداً بذلك على الأوضاع السياسية للبلاد، فمنذ فترة أسرة هان الإمبراطورية (٢٠٦ ق.م / ٢٢٠ م) شهد طريق الحرير أوج ازدهاره¹، كما شهد تطوراً سريعاً في فترة حكم أسرة تانغ (٦١٨ / ٩٠٧ م)

1 أسرة هان وحدت البلاد تحت رايتها بعد حرب أهلية طاحنة، وازدهرت في عهدهم الهندسة والعمارة ثم نجحت بالتوسع أكثر في كوريا ومنشوريا وهضبة التبت والهند الصينية وامتدت غرباً إلى حدود أفغانستان لتصل إلى نروة القوة والسيطرة، صينٌ واحدة وإمبراطورٌ واحد، ففي عهدهم ازدهرت التجارة الصينية عبر طريق الحرير لتصل إلى شواطئ البحر الأسود وحوض البحر المتوسط، حيث أنشأت أسرة هان الغربية حكومة الوصاية في المناطق الغربية، وشقت طريق الحرير في شرق جبال بامير مع السيطرة عليه، كما قامت بتشييد الطرق والمحطات البريدية وأبراج الإنذار على طول الطريق، واستصلاح الأراضي، وإنشاء نقاط التقنيش، مما ضمن أمن المواصلات، ومنذ ذلك الوقت بدأت الدولة تؤثر وتسيطر على تجارة الحرير بصورة مباشرة، كما تجاوز نطاق النفوذ لأسرة هان الشرقية غربي هضبة بامير، حتى امتد إلى إيران وسوريا اليوم، وكانت بين أسرة هان الشرقية والإمبراطورية الرومانية صلات حميمة، ففي عام ١٦٦م، وصل الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس إلى لويانغ، وقدم المنتجات الرومانية إلى الإمبراطور ليو تشي لأسرة هان، مما يرمز ذلك إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين روما والصين رسمياً. ومع بداية تشغيل طريق الحرير البحري كانت قومية بايويو المأهولة في المناطق الساحلية بجنوب شرقي الصين تقوم باستكشافات كثيرة للعالم الخارجي في عهد أسرة هان الغربية، مما شكل بذلك طريقاً تجارياً مستقرًا انطلق من شيويون (في محافظة شيويون بمقاطعة قوانغدونغ اليوم) وخبو (في محافظة خبو بمقاطعة قوانغشي اليوم)، ثم دخل شبه الجزيرة الماليزية وخليج سيام وخليج البنغال مارًا ببحر الصين الجنوبي، حتى وصل إلى دولة كانتشيبورا وسريلانكا القديمة في جنوبي شبه الجزيرة الهندية، مما لعبت التجارة البحرية دورًا كبيرًا في تحفيز اقتصاد بلادها، فقامت بتعزيز إدارتها للمدن الساحلية فأسست مؤسسة عسكرية في جنوب محافظة شيويون في سبيل تخزين البضائع وتسهيل تجارتها.

حيث كانت التبادلات والاتصالات بين الصين ودول آسيا الوسطى وآسيا الغربية كبيرة¹، فقد كان طريق الحرير البحري في عهد أسرتي تانغ وسوي أهم الحدود الفاصلة لعملية تطويره لأنه تشكل في ظل التغيرات التي طرأت على الخريطة السياسية والقومية من المناطق الغربية إلى آسيا الوسطى خاصة في عهد أسرة تانغ، وتوقف طريق الحرير البري بالتدريج، وانتقل المركز الاقتصادي الصيني إلى الجنوب، أما في عهد أسرة سوي وبعد تحقيق الوحدة في عهد أسرتهم، ومع تعزيز الإدارة في بحر الصين الجنوبي، أصبح بحر الصين الجنوبي وجياوتشي حاضرة تجارية معروفة ومركزاً تجارياً شهيراً كلاً على حدة، حيث برزت التفوق الصيني المتمثلة في السواحل الجنوبية الشرقية الطويلة والعدد الكبير من الموانئ غير المتجمدة، شيئاً فشيئاً، كما شقت أساطيل السفن التجارية العربية والفارسية خطاً ثابتاً موجهة للصين نتيجة الإيرادات الهائلة التي جلبتها التجارة البحرية، كما دخلت التجارة الصينية – اليابانية مرحلة الازدهار. وسرعان ما تحولت إمبراطورية تانغ من الازدهار إلى الانحطاط وذلك بعد اندلاع تمرد آن لوشان²، حيث فقدت السلطة في السهول الوسطى سيطرتها على المناطق الغربية، فعانى طريق الحرير البري من التوقف بسبب نيران الحرب، وفي الوقت ذاته نهضت الإمبراطورية العربية (الإسلامية) الواقعة بين أوروبا والشرق، وفرضت ضرائب ثقيلة على الرحلات التجارية، لذا انحط هذا الطريق التجاري القديم بسرعة، بينما أصبحت التجارة البحرية الخيار الأول لمعظم الرحلات التجارية، وأضحت قوانغشتو أكبر الموانئ حجماً وتجارياً في الصين، وكان يعد الخط الذي كان ينطلق من قوانغشتو ويتجه إلى دول الخليج العربي، مروراً ببحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي، أطول الخطوط البحرية في العالم وقتئذ.

1 رحلت سلالة هان مع حلول عام ٢٢٠م، فعمت الفوضى في البلاد ما يقارب ٤٠٠ عام، وتقسمت الإمبراطورية لعدة أقاليم ما أدى لموجة من الركود والانحطاط، حولت الصين إلى لقمة سائغة للمغول الذين كروا هجماتهم لها، لتدخل الصين في قرون مظلمة كثرت فيها الغزوات عليها والركود الاقتصادي والحضاري حتى حل عام ٦١٨م، لتصل مع سلالة تانغ للحكم، والتي نجحت بإعادة هبة الصين للعالم، فأعدت استقلال البلاد ووحدة أراضيها من جديد، وأعدت للنشاط الحضاري ازدهاره، ووضعت الأسس الدقيقة للدولة والحكم، مُعلنَةً بذلك عودة الإمبراطورية الصينية للواجهة، ٣٠٠ عام تقريباً عاشتها الصين في ظل ازدهارٍ رهيب تجارياً وحضارياً وحتى أدبياً، وقدمت للعالم حينها أول كتاب مطبوع، ومن تم تصنيع البارود الذي سيطلق نيرانه على الصين بدلاً من إطلاقه على أعدائها، وكانت القوافل التجارية التي تنقلت في طريق الحرير تتمتع بحجم ضخم، متكونة من مئات وحتى آلاف الأشخاص، ومن بينهم التجار والبشرون والحرفيون والعلماء والمسافرون تُشير بعض الكتابات إلى أن عدد العرب والفرس الذين استقروا في الصين وصل إلى ٤٠٠٠ شخص، وفي عام ٨٧٩م، كان عدد المسلمين واليهود والمسيحيين والمجوس يتراوح ما بين ١٢٠ - ٢٠٠ ألف شخص.

2 كانت ثورة آن لوشان حركة تمرد مدمرة ضد سلالة تانغ الحاكمة للصين، بدأ التمرد عملياً في السادس عشر من ديسمبر عام ٧٥٥م، حيث أعلن الجنرال آن لوشان نفسه إمبراطوراً في شمال الصين مؤسساً سلالة يان الحاكمة المناقسة، وانتهى التمرد بسقوط يان في السابع عشر من فبراير عام ٧٦٢م (على الرغم من أن تأثيرات الثورة استمرت بعد هذا التاريخ)، امتدت هذه الثورة على فترة حكم ثلاثة أباطرة من سلالة تانغ قبل أن تُسحق في النهاية، وشملت طيفاً واسعاً من القوى الإقليمية، إضافةً إلى الموالين لسلالة تانغ، كان من المشاركين الآخرين القوات المعادية لحكم آل تانغ، خصوصاً تلك الموجودة في منطقة آن لوشان في مقاطعتي خبي وسوقديانا أو المناطق الواقعة تحت سيطرتها. أدى التمرد والاضطراب التالي له إلى خسائر كبيرة للأرواح ودمار واسع النطاق، حيث أضعفت هذه الثورة سلالة تانغ الحاكمة بشكل كبير وأدت إلى خسارة المناطق الغربية.

وفي عهد أسرة سونغ شهدت التجارة ازدهاراً كبيراً نالت فيه التجارة البحرية الخاصة تطوراً كبيراً بفضل التشجيع الحكومي، حيث سعت أسرة سونغ لتطوير وإكمال نظام إدارة التجارة الخارجية البحرية¹، فكادت تحتكر جميع الأعمال التجارية في بحر الصين الجنوبي، وأصبحت التجارة البحرية مصدراً مالياً هاماً لإيرادات أسرة سونغ، ولكن بعد هلاك أسرة سونغ استولت إمبراطورية المغول على السهول الوسطى، ومع خطى حملاتها العسكرية في أرجاء العالم انتشرت تأثيرات طريق الحرير البحري في كل العالم الحضاري الذي تم التعرف عليه وقتذاك.

وبالتالي وبعدهما خضعت أجزاء من طريق الحرير على نحو متفاوت للقوى السياسية والقبايل المتعددة في آسيا التي كانت ملهمة نشاطه التجاري، بدءاً من أسرة سونغ (٩٦٠ / ١٢٧٩ م) التي سيطرت على الأجزاء الجنوبية من الصين، وأسرة تشينغ (١٦٣٦ / ١٩١٢ م) التي سيطرت على الأجزاء الشمالية منها²، تليها قبائل من الأتراك الأويغور³، ثم القراخانيين الذين كونوا في القرن الثاني عشر أشبه بالدولة

1 سقوط يتبعه سقوط هجمات من التتار في الشمال وأخرى من المغول في كل البلاد وسلاطة تذهب وأخرى تنهار، لقد سقطت سلالة تونغ عام ٩٠٦م، ومعها اهتزت الصين في حالة من الفوضى، نزاعات داخلية وشتات في الحكم حتى وصلت سلالة سونغ للحكم عام ٩٦٠م، وفي ذات العام هاجم التتار الصين واحتلوا القسم الشمالي بالكامل، لتبقى سلالة سونغ في القسم الجنوبي، وضعت أسرة سونغ ما يُسمى بأول قانون نظامي بشأن إدارة التجارة الخارجية في التاريخ الصيني - "لوائح إدارة التجارة الخارجية البحرية في فترة يوانغونغ لأسرة سونغ"، التي عززت التنمية الاقتصادية والحياة المتحضرة إلى حد ما، وقدمت شروطاً ميسرة للتبادلات الثقافية الصينية - الأجنبية. ومع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي انطلق جنكيز خان من منغوليا ليدخل الصين وينتزعها من أيدي التتار، وعاد حفيده الكرة من جديد ليهاجم هذه المرة القسم الجنوبي مُعلناً بذلك ضمها إلى إمبراطوريته لتكون الصين تحت الاحتلال وتتحوّل من إمبراطورية عظمى إلى دولة تابعة لا تتحرك إلا بأوامر مُحتلّيها

2 على الرغم من أن الصين شهدت خلال عهد المغول بعض من مظاهر التقدم والتطور لكنها استمرت في الإنحطاط الحضاري والضعف على مستوى القوة حتى باتت في حالة مزرية مع حلول القرن السادس عشر لتعزل نفسها بالكامل وتتحوّل إلى دولة حبيسة نفسها بانتظار من ينتشلها من عزلتها، لتظهر في القرن السابع عشر أسرة تشينغ والتي كانت آخر الأسر الحاكمة في الصين، حاولت لم شتات البلاد وإعادة الملمة الصفوف لتتجج لفترة وجيزة حيث صعّدت لتتصدر اقتصاد العالم، فمع أوائل القرن التاسع عشر كان الاقتصاد الصيني يُعتبر أكبر اقتصاد في العالم حيث نفذت أسرة تشينغ ما كانت تنتهجه أسرة مينغ من سياسة الحظر البحري باستمرار، وبعد توالي الإمبراطور تشيان لونغ العرش، بدأت الحكومة تُطبق سياسة الإنغلاق على نحو شامل، وسمحت في البداية بانفتاح التجارة الخارجية في أربعة موانئ، ثم سمحت بانفتاح ميناء قوانغتشو، بشرط أن تحتكر ١٣ شركة التجارة الخارجية، على الرغم من توجه السياسة الحكومية بشأن التجارة الخارجية نحو الإنغلاق، لم يشهد حجم الشحن والتفريغ لميناء قوانغتشو أي تراجع، بل ازداد بشكل ملموس بالمقارنة مع أسرتي سونغ ومينغ، إذ أن قوانغتشو كانت النافذة الخارجية الوحيدة للسوق الصينية، مما أثار ذلك حماسة سكان السواحل الجنوبية الشرقية للهجرة إلى الخارج، حيث تسابقوا لبناء نوادي الرابطة في مختلف دول جنوب شرقي آسيا، مما أحدث تأثيراً في التنمية الاقتصادية المحلية، إلا أنها لم تنعم بذلك الاقتصاد القوي لفترة طويلة فمع حلول عام ١٨٢٩م، دخلت الصين فيما اسموه قرن افهانة الذي استمر إلى أكثر من مئة عام، حيث كانت فيه الصين مسرحاً لتدخلات الدولية فقد احتلت روسيا ثم اليابان منشوريا، وضمت اليابان كلاً من تايوان وشبه الجزيرة الكورية لأراضيها بعدما طردت الصينيين منها، فيما اتجه الإنكليز إلى هونغ كونغ وسيطروا على إقليم التبت، أما ألمانيا فيدورها حولت شمال الصين إلى مقر لقواعدها العسكرية في الشرق، وحتى البرتغال أخذت نصيبها لتقطع ماكاو من الصين، فيما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تنظر للصين كحجر أمن للعبور نحو آسيا ومعها الإمبراطورية النمساوية المجرية التي حاولت مراراً للدخول للخط مع خلفائها على أرض الصين، بقيت بذلك الصين لسنوات طويلة مسرحاً لتقاسم النفوذ ومنطقاً للتوسع في كل أنحاء العالم، شهدت البلاد خلال تلك السنوات الكثير من الانتفاضات والإضطرابات وازداد التحكم الدولي فيها بشكل كبير وبات حكم سلالة تشينغ موضع قلق للمواطنين أدخل البلاد فيما بعد بحالة من اليأس ليدمن أكثر من ٤ مليون من السكان على مادة الأفيون المخدرة والتي حولت الصين حينها إلى أكبر مستورد للمخدرات من أمريكا وأوروبا، حتى حل القرن العشرين ومع ارتفعت المطالبات باستقلال البلاد وخروج الاستعمار منها بالكامل، ما ولد أول الثورات في الصين بهدف الاستقلال، فانطلقت ثورة الملاكمين عام ١٨٩٩م، التي وقعت ضد الإمبريالية والتدخل الأجنبي إلا أنها قمت من ثماني دول مجتمعين عليها كانوا الدول العظمى في ذلك الوقت استمرت الثورة لمدة عامين إلا أنها لم تُحقّق مطالبها ومنذ ذلك التاريخ ماتت الإمبراطورية الصينية وبقيت مراسم الدفن فقط التي أتت بعد سنوات قليلة مُعلنة دخول البلاد في حقبة جديدة.

3 الأويغور وهي قبائل شبه متمدنة سيطرت على شمال شرق تركستان، وقامت بدور الوسيط بين الأقاليم المتحضرة من الفرس والصينيين والهنود.

الحاجزة بين المغول والدولة الخوارزمية، كما كان الإسماعيليون في فارس، والعباسيون في العراق مركز الخلافة الإسلامية، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، والدولة البيزنطية، ثم الأيوبيون في مصر والشام، والإمارات الإفريقية على سواحل بلاد الشام فضلاً عن القوى التجارية الإيطالية في أكثر من منطقة، ومع توزيع هذه القوى واختلافها كان المغول يسعون في مرحلة من مراحل تاريخهم إلى إقامة دولة عالمية كان من أبرز أهدافها السيطرة على طريق الحرير الموصل بين الشرق والغرب، لذا كان لا بد لهم من إخضاع هذه القوى أو تحييدها أو ضمان تبعيتها ليتسنى لهم الانفراد بالسيطرة على هذا الطريق، فتمكنوا من إنجاز نسبة كبيرة من مشروعهم هذا حتى خضعت لهم شمال الصين كلها والمنطقة الممتدة من سهول روسيا حتى بولندا والمجر، ومن الصين شرقاً حتى بلاد الشام غرباً مروراً بتركستان والدولة الخوارزمية والعراق في خط سير يتوافق مع طريق الحرير.

ترك امتداد سيطرة المغول على تلك الساحة العالمية تأثيراً حاسماً على نشاط التجارة بين الشرق والغرب، فالهزيمة الكبيرة والتدمير الهائل والمجازر الفظيعة التي ارتكبوها كانت لها نتائج سلبية على طريق الحرير البري، ولم تستعد الحياة الاقتصادية في تلك الفترة عافيتها من جديد كما كانت عليه من قبل، فعلى الرغم من تعطل الطرق التجارية لاسيما البرية في تلك المرحلة، إلا أنّ ذلك لا ينطبق على سنين حكم المغول كافة، فما إن استقرت السيطرة المغولية على مناطق التوسع إلا وبدأت حركة ازدهار وتوسع للطرق التجارية، فبعدها وصل هولوكو حفيد جنكيز خان إلى مدينة بغداد وإسقاط الخلافة العباسية (٥٦٥ هـ / ١٢٥٨ م) (العالم المتمدن في المشرق العربي وأوروبا الصليبية)، أصبحت الإمبراطورية المغولية واقعاً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، لا بد من التواصل معها دبلوماسياً واقتصادياً، بل إن قيام دولة المغول في آسيا الوسطى وفارس والعراق فتح المجال هذه المرة أمام أوروبا لتصل إلى الصين براً وبحراً على نحو مباشر، لاسيما بعد انهيار الدولة العربية الإسلامية والدويلات القائمة على أنقاضها.

لم تكن منغوليا هي المستفيد الوحيد من النشاط التجاري بل الصين أيضاً، ففي عام (١٢٦٣ م) نقل قوبلاي خان (١٢٩٤ / ١٢٦٠ م) عاصمة الإمبراطورية المغولية من زاندو إلى بكين وذلك بعد إعلان تأسيس أسرة يوان الملكية (١٣٦٨ / ١٢٧١ م)، فشهدت الصين آنذاك ازدهاراً اقتصادياً، فقد صدرت تنسغ تو غربي الصين الحرائر الصينية إلى أواسط آسيا وانتشرت على السواحل البحرية المرافئ التي عجت بنشاط منقطع النظير.

ولكن بعد تنامي العسكرية التركية في بلاد المشرق وآسيا الغربية (المماليك والأتراك السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون الذين أسسوا ممالك عسكرية بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر)، انحسر بذلك المد المغولي وعادت الطرق التي فتحها المغول أمام التجار الغربيين لتغلق من جديد مما قاد تغيير الظروف الدولية على طريق الحرير إلى ضعف النشاط التجاري، وعودة الصين إلى سياسة العزلة، وباحتلال الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، كان هذا الحدث بمثابة هيمنة تجارية على المنطقة، فقامت سلسلة من الحروب الروسية العثمانية التي أصبحت آسيا الوسطى والغربية ساحة لمعاركها، الأمر الذي أثر سلباً على الطريق التجاري البري وتحول قسم كبير من التجارة شطر الطريق البحري، حيث عرقلت النضالات السياسية التبادلات في طريق الحرير البري، ومع وجود مضيق الدردنيل تحت السيطرة العثمانية، أغلق العثمانيون طريق الحرير التاريخي أمام أعدائهم الغربيين، لتُصبح حقوق التجارة الحصرية مع دولة المغول المسلمين في الهند تمر فقط عبر المحيط الهندي، مما صعّب ذلك التجارة الدولية على أوروبا، وبفرضهم الضرائب الباهظة على مرور التجارة فقد كان التجار الأوروبيون ملزمين بدفع الضرائب والرسوم لها، كما أن الإمدادات على طول طريق الحرير البحري لم يكن بإمكانها تجنب شمال أفريقية وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي والهضبة الإيرانية وغيرها من المجال الإسلامي، مما جعل الدول الغربية تواجه صعوبات في تحقيق التجارة المباشرة مع الشرق عبر الطريق البحري التقليدي، فاضطرت للبحث عن الخطوط الجديدة المؤدية إلى الشرق، في الوقت الذي توقفت فيه الصين عن تسيير رحلاتها البحرية وعادت لتتبع خلف أسوارها، كان الغربيون ماضون في الاستكشافات الجغرافية ومغامراتهم الاستعمارية نحو أفريقية وتجهيزهم الأساطيل التجارية والحربية التي خرجت في أواخر القرن الخامس عشر لتفتح بذلك في تاريخ العالم عصراً جديداً هو عصر انتشار السيطرة الغربية وبداية الاستعمار، ففي ظل تلك الخلفية التاريخية، ظهر عصر الاستكشاف الأوروبي مع اكتشاف خط جديد يمتد من الطريق البحري الرابط بين الصين والغرب من المحيط الهندي إلى الدول الأوروبية المطلّة على سواحل المحيط الأطلسي بالتدريج، حيث استولى البرتغاليون على مضيق ملقا في عام ١٥١١م، وكان ذلك يؤثر على الأنشطة البحرية في مناطق بحر الصين الجنوبي، مما جعل العلاقات التجارية البحرية بين العالمين الشرقي والغربي تشهد تغييراً، ففي عام ١٥٥٣م، "استعار" البرتغاليون أرضاً في ماكاو، وفي ذلك الحين ومع تقدم الاستكشاف الأوروبي، تم شق ثلاثة خطوط جديدة تربط بين قوانغتشو وأمريكا الشمالية وبين قوانغتشو وأوقيانوسيا وبين قوانغتشو وروسيا

كل على حدى، وذلك على أساس طريق الحرير البحري في عهد أسرة مينغ مما أنشأ تشكيلة المواصلات البحرية العالمية الدائرية، وقدم إسهاماً كبيراً في تعزيز التجارة الخارجية، ولكن بعد نهوض الحضارة الصناعية في العالم الغربي، تحول طريق الحرير البحري المزدهر إلى الطريق الذي لجأ إليه المستعمرون الأوروبيون للسيطرة على العالم، وأصبحت الدول والأقاليم على طول شمال أفريقية والشرق الأوسط وجنوبي آسيا وجنوب شرقي آسيا مستمرة بالتتابع، وبعد انفجار حرب الأفيون بدأت الصين باعتبارها المصدر التجاري لطريق الحرير البحري تتعرض للغزو الغربي وبعد الهزيمة في حرب الأفيون الأولى¹، فقدت الصين حقها في البحر، وأصبحت شبه مستعمرة، واضطرت لفتح الموانئ الساحلية، بحيث لم تقم الدول الغربية بإغراق السوق الصينية بمنتجاتها فحسب، بل نهبت الموارد الصينية واحتكرت صادرات المنتجات الصينية بما فيها الحرير والخزف والشاي وغيرها، ومع التنازل عن جزيرة هونغ كونغ إلى بريطانيا، حلت هونغ كونغ محل قوانغتشو لتصبح منفذاً رئيسياً لترانزيت التجارة الدولية في الشرق الأقصى، وبذلك انتهى فعلياً الدور التاريخي لطريق الحرير ودخل اللقاء بين الثقافات والحضارات في طور آخر هو الصدام الدامي والحروب التي لم تتوقف حتى تصفية الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن العشرين، لاسيما أن قيام الثورة الصناعية في أوروبا أحدثت تغييرات مهمة في العلاقات السياسية والاقتصادية، وتسببت نتائجها في نقل مركز الحضارة من الشرق إلى الغرب، وكانت أبرز مزايا الحقل الصناعي هو

1 منتصف القرن التاسع عشر وتحديداً ما بين العامين ١٨٣٩م و ١٨٦٠م، الصين ما زالت منذ القرن السابع عشر تحت حكم سلالة تشينغ وهي سلالة التي خلفت سلالة مينغ، وكتاتهما كانتا من أضعف السلالات التي حكمت الصين التي يمتد عمرها إلى قرابة ٥٠٠٠ عام، وتعتبر سلالة تشينغ آخر هذه السلالات الإمبراطورية التي ستمت على حكم الصين، وإبان حكمها كانت الصين بلداً مزدهراً تجارياً لكن من دون أي قوة عسكرية تحمي وترعى هذه التجارة، فقد غزت منتجاتها من الحرير والبورسلان والشاي أرجاء العالم كله، وحتى ذلك الوقت كانت التجارة تعتمد نظام المبادلة وهو ما يشبه المقايضة، حيث السلعة بالسلعة أو بما يُقابلها من الفضة أو الذهب وليست بمقابل الأموال الورقية كما هي في هذا الزمان، وحصل في ذلك الوقت أن أصدر إمبراطور صيني من سلالة أسرة تشينغ هو (شيان لونغ) مرسوماً يقضي بعدم استيراد السلع، حيث بات لدى الصينيين شبه اكتفاء ذاتي لذا أُجبر العالم وتحديداً الأوروبيون على استبدال سلع الصين من الحرير والشاي بالفضة، ما أدى لفروع خزائن الأوروبيين من الفضة، حيث لم يعد الصينيون بحاجة لسلعهم الأخرى ومع انزعاج الأوروبيين من هذا القرار، فكر البريطانيون بتوريد سلعة أخرى للصين تكون جديدة عليهم وتعوض نقص الفضة، فراحت شركة الهند الشرقية البريطانية تزرع الأفيون في شمال الهند أو في بنغلادش الحالية، وسمحوا للتجار بتوريدها للصين، فغزى الأفيون الصين وبات شبه سلعة أساسية لدى الشعب الصيني الكبير، كل هذا جرى ما بين أواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، حتى جاء للحكم إمبراطور آخر من سلالة تشينغ يُدعى (يونغ تشينغ) وذلك في عام ١٨٢٩م، ليصدر مرسوماً يمنع دخول الأفيون إلى بلاده بل راح يُطارد تجار هذا الأفيون ويصادر سفنهم المحملة به، وأكمل هذه المهمة من بعده سلفه الإمبراطور داو غونغ، حتى جاء عام ١٨٣٩م، هذا العام تحديداً هو ما سيُعتبر نقطة تحول أولى في تاريخ الصين الحديث، حيث قررت بريطانيا في ذلك العام شن حرب على أسرة تشينغ التي منعت تجارة الأفيون، وجرت بما يُعرف في التاريخ بحرب الأفيون الأولى التي استمرت قرابة ثلاث سنوات، وانتهت بنصر للإنجليز وهزيمة مزلة للصينيين الذين أُجبروا عقب الحرب أي عام ١٨٤٢م، على توقيع اتفاقية يعتبرها الصينيون عاراً في تاريخهم وجرحاً لكرامتهم تُعرف باتفاقية نان جينغ بموجبها تنازلت الصين عن جزيرة هونغ كونغ للبريطانيين الذين حولوها لقاعدة عسكرية، كما أعادوا السماح بتجارة الأفيون، ولأن الاتفاقية كانت مزلة اندلع تمرد صيني ضد أسرة تشينغ من قبل مملكة تُعرف باسم تاي بينغ وهي مملكة صينية اعتنق من يحكمها المسيحية، وهذا التمرد أسفر عن حرب أهلية دامت لسنوات راح خلالها قرابة ٢٠ مليون قتيل صيني، وما إن انتهت هذه الحرب الأهلية بعد إنتصار أسرة تشينغ، حتى بدأت حرب الأفيون الثانية التي اندلعت بسبب رغبة الإنجليز تحقيق مزيد من المكاسب من الصين، وتدخلت فرنسا إلى جانب بريطانيا في هذه الحرب الثانية، والتي إنتهت أيضاً بهزيمة الصينيين، وتوقيع اتفاقية هينة أخرى، تُعرف باتفاقية بكين تنازلت بموجبها أسرة تشينغ عن منطقة أخرى من أراضيهم للإنجليز وهي شبه جزيرة كولون التي أُلحقت به هونغ كونغ، وكان ذلك عام ١٨٦٠م، وعلى هذا استمر حال الصينيين في سنواتهم اللاحقة، شعب مهزوم ومدمن ومُهَان.

اكتشاف الطاقة البخارية واستثمارها في مجال النقل فظهرت إلى الوجود السفن البخارية وحلت السيارات والقاطرات والطرق المعبدة والسكك الحديدية، محل الحيوانات في النقل، كما أن التطور الكبير في حركة الملاحة والعلوم المرتبطة بها واكتشاف الطرق البحرية وحفر قناة السويس عزز إمكانية اعتماد الطريق البحري دون الطريق البري الذي تسوده الصحارى القاحلة والرمال المتحركة والمنعطفات الجبلية المعقدة التي جعلت العبور منه أمراً شاقاً على المسافرين، وهكذا انطوت صفحات طريق الحرير القديم العظيم .

ولكن لم يتطلب الأمر لنهوض الصين مجدداً إلا أقل من سبعين عاماً حيث تحولت من دولة معزولة إلى واحدة من أعظم القوى الاقتصادية في العالم، فقد سارت الصين كالمارد بخطاً ثابتة نحو تصدر عرش الاقتصاد العالمي، أي دولة معزولة حولت عزلتها إلى معجزة حقيقية، خزانٌ بشري لا يهدأ وجيشٌ جرار لحماية البلاد، فبفضل سياسة الإصلاح والانفتاح فتحت الصين بابها على العالم الذي حقق تحولاً عظيماً من الإنغلاق الكامل إلى شبه الإنغلاق ثم إلى الانفتاح على نحو شامل، فالقوة التي تمتلكها الصين اليوم لم تأت من فراغ، فنجاح وقوة أي دولة يكون أولاً في نجاحها اقتصادياً، حيث وضعت الصين من أولوياتها في المركز الأول تحديث اقتصادها وعملت كل ما بوسعها من أجل تحقيق هذا الهدف، فتخلت تدريجياً عن التخطيط المركزي لصالح اقتصاد السوق، وعبأت مصادرها الضخمة من الأيدي العاملة، وبذلت جهداً استثمارياً هائلاً من أجل تحديث الصناعة وتطوير البنية التحتية، وجذب استثمارات أجنبية كثيفة، خلفت قدرات إنتاجية جديدة في القطاعات التي تستجيب للطلب المحلي والعالمي، ومررت عملية تنمية قطاعات الاقتصاد الصيني خلال الفترة التي أعقبت الثورة عام ١٩٤٩م، بالعديد من المراحل

المهمة¹، ولكن يعد الانفتاح والإصلاح الاقتصادي الذي حدث بعد عام ١٩٧٨م، المرحلة الأبرز في مسيرة التجربة التنموية الصينية، مما ساهم في نقل الاقتصاد الصيني من التخلف إلى منافسة القوى الاقتصادية الكبرى في العالم، فمن الإصلاحات الاقتصادية التي غيرت وجه الاقتصاد الصيني للأبد، وعبرت به من الاقتصاد الموجه المخطط إلى اقتصاد السوق مما جعل الصين تنمو سريعاً فلم يحدث ذلك من قبل في أي دولة على مر التاريخ، تلك الإصلاحات التي قام بها قائد نهضتها الحديثة الزعيم دينغ شياو بينغ، حيث بدأ بإثارة حماس الفلاحين وجعلهم المسؤولين عن أعمالهم الزراعية بصورة كاملة دون تدخل حكومي سواء في تحديد نوع الزرع أو الأسعار، وألغى كثيراً من السياسات المحدودة ما سمح للفلاحين بتحسين مستوى معيشتهم وتنشيط الاقتصاد وزيادة الإنتاج، بالإضافة لفتح العلاقات الدبلوماسية بين الصين وأمريكا عام ١٩٧٩م، الأمر الذي فتح الأبواب لتدفق ملايين الدولارات لأراضي التين الصيني من خلال فتح الطرق التجارية والاستثمارات الأجنبية التي كانت تسعى للاستفادة من العمالة الرخيصة والإيجارات المنخفضة فيها لتفتتح آلاف الورش، وهي خطوات أدت في نهاية المطاف إلى إخراج الملايين من دائرة الفقر وتحسين مستوى المعيشة ورفع مستوى الدخل، ومن هنا بدأت أكبر النهضات التاريخية في التاريخ وأخذ الاقتصاد الصيني في النمو بوتيرة متسارعة، فخلال فترة التسعينيات من القرن الماضي بلغت نسبة النمو في الاقتصاد الصيني مستويات قياسية، وبذلك بدأ تشكيل النمط المالي ذي الخصائص

1 لم تهدأ الصين أبداً واجتاحتها النيران أكثر عام ١٩٤٩م، لتندلع الحرب الأهلية الأعنف بين الحكومة الصينية ممثلةً بالحزب القومي والمليشيات الشيوعية ممثلةً بالحزب الشيوعي الذي تلقى الدعم من الاتحاد السوفيتي تزامن ذلك مع فقر شديد في الصين ما اكسب الحزب الشيوعي القوة لتغيير الحكم وفي ذات الوقت أظهر مقاتليه مهارة وخبرة كبيرة لينجحوا بسرعة بالسيطرة على بر الصين الرئيسي، فرت الحكومة بسرعة إلى تايوان معلنة تاي بي عاصمة مؤقتة لها، في تلك الأثناء سيطر الحزب الشيوعي على البلاد وبدأ برسم الخطة لإعلان الجمهورية الجديدة وبالفعل في الأول من أكتوبر عام ١٩٤٩م، أعلن ماو تسي تونغ تأسيس جمهورية الصين الشعبية والتي تضم حزب واحد فقط هو الحزب الشيوعي الذي أعلنها دولة لا دينية معلناً بذلك نهاية قرنٍ من الإهانة للصين، سارعت الحكومة الشيوعية للإغلاق على نفسها في البداية ما سبب مشاكل اقتصادية فادحة ورفع من معدلات الفقر أكثر وأكثر، ليقرر ماو البدء بإصلاحات اقتصادية واجتماعية لكنها ما لبثت أن انطلقت حتى اندلعت الحرب الكورية وتدخلت الصين بجانب كوريا الشمالية، ومن ثم غزت القوات الصينية إقليم التبت وضمتها إلى جمهورية الصين الشعبية، لتنتشأ بذلك منطقة صراع مع الهند لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، وهي أشبه بالقنبلة الموقوتة المهددة بالانفجار، حل عام ١٩٥٨م وعندها فكر المؤسس ماو بطريقة لإنقاذ البلاد ولم يجد سوى الخزان البشري الهائل فيها ليطلق ما أسماه القفزة العظيمة للأمام والتي كانت تهدف إلى استخدام تعداد السكان الضخم في تطوير الدولة بشكل سريع وتحديداً في الزراعة والصناعة لكن تلك الخطة أتت بنتائج عكسية على البلاد وأدخلتها في مجاعة محزنة خسرت فيها الصين حياة أكثر من ٤٥ مليون مواطن نتيجة للسياسة التي اتبعها ماو تسي تونغ، لكنها نجحت بعد ذلك بأربعة أعوام بتفجير أول قنبلة نووية لها، عاد ماو ليحاول من جديد ترتيب الصفوف فأطلق الثورة الثقافية في مسعى منه لإعادة الحماس الثوري وفي ذات الوقت تطهير الحزب الشيوعي، وحملت سبعينيات القرن الماضي انفراجة كبيرة في العلاقات مع الخارج، حيث نجحت الصين في الحصول على عضوية في الأمم المتحدة عام ١٩٧١م، ومن ثم تلتها زيارة للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون وصفت حينها بالتاريخية وكانت مفتاحاً للعلاقات بين البلدين بعد حروب وصراعات في آسيا وتقرب صيني من الاتحاد السوفيتي كاد أن يصل للتبعية، توفي ماو تسي تونغ عام ١٩٧٦م، واحتدم الصراع داخل الحزب الشيوعي على السلطة حتى هيمن رجل واحد سينجح فيما بعد بصناعة معجزة هائلة ستقفز بالصين إلى ترتيب الدول الكبرى، فبعد وفاة ماو تسي تونغ ظهر الزعيم في الحزب الشيوعي دينغ شياو بينغ للواجهة ليطلق سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية غيرت وجه الصين للأبد فمنح المزارعين الحق في استغلال أراضيهم وهو الأمر الذي ساعد على تحسين مستويات المعيشة وزيادة إنتاج المواد الغذائية بشكل كبير ومن ثم أعلن عن فتح أبواب الاستثمارات الأجنبية في البلاد، وشهد عام ١٩٧٩م عودة العلاقات الدبلوماسية بين الصين والولايات المتحدة المريكية ما ساعد على جذب الاستثمارات للصين، ومع حلول تسعينيات القرن الماضي بلغ نمو الاقتصاد نروته، والإصلاحات الاقتصادية انعكست سريعاً على الشعب حيث انخفضت معدلات الفقر بشكل كبير وتسارعت مستويات التعليم بالنمو بشكل هائل.

الصينية للتنمية الخارجية، فتم تأسيس بنك الصادرات والواردات الصيني، والبنك الوطني للتنمية، وأصبح بنك الصادرات والواردات الصيني يُقدم القروض الحكومية التفضيلية ذات مهلة التسديد الطويلة والفوائد المنخفضة، والتي كانت تستهدف بشكل رئيس الدول الأفريقية، وتُركز على دعم المؤسسات الصناعية الضخمة القائمة ومجموعات كاملة من مشروعات البنية التحتية، وتحويل النمط القديم المتمثل في المساعدة في البناء إلى نمط المقاول، الأمر الذي رفع فعالية استخدام رأس المال، وخفض المخاطر المؤسسية.

ومع بداية الألفية الجديدة وتحديدًا عام ٢٠٠١م، انضمت الصين إلى منظمة التجارة العالمية، وبهذا الانضمام مُنح الاقتصاد الصيني دفعة هائلة، بسبب انخفاض التعريفات الجمركية على منتجاتها، مما منح السلع الصينية تأشيرة الانتشار في كل مكان، وبذلك أصبحت البضائع والمنتجات الصينية في كل منزل، محتلة بمنتجاتها أسواق العالم فنجدها في كل حذبٍ وصبوبٍ في جميع دول العالم على اتساع أرضه وقاراته، والأرقام خير دليل على ذلك ومقدار حجم النمو الرهيب الذي حققته، ففي عام ١٩٧٨م، بلغت قيمة صادرات الصين ١٠ مليارات دولار ما يُشكل أقل من واحد بالمئة من حجم التجارة العالمية، أما عام ١٩٨٥م، فقد بلغت قيمتها ٢٥ مليار دولار، وبعد أقل من عقدين فقط وصلت صادرات الصين إلى ٧.٣ تريليون دولار لتكون بذلك أكبر دولة مُصدرة للسلع على وجه الأرض، وأصبحت بذلك ورشة العالم التي لا تهدأ.

ومع دخول القرن الواحد والعشرين دخل التعاون الاقتصادي والتنموي الخارجي الصيني المرحلة الجديدة للتنمية الشاملة، حيث تم إنشاء سلسلة من آليات التعاون الخارجي بما فيها منتدى التعاون الصيني - الأفريقي، لغرض دفع التعاون الاقتصادي الخارجي على نحو شامل، وبعد أكثر من نصف قرن من التطبيق والممارسة، شكلت الصين بالتدريج نمطها الخاص للتعاون الاقتصادي والتنموي الخارجي، والذي يتمثل في تنسيق الموارد بشتى أشكالها بالاعتماد على السبل المالية، وبذلك استمر الاقتصاد الصيني في المحافظة على درجة سرعة نموه الاقتصادي مُحققاً قيمةً غير مسبوقه للنتائج المحلي، بالإضافة إلى نسب نمو مرتفعة بلغت في المتوسط ١٠٪ سنوياً خلال الأربعين عاماً الماضية، حتى حققت الصين ثاني أكبر اقتصاد عالمي بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وبلغ ناتجها المحلي ١٤.٧ تريليون دولار في عام ٢٠٢٠م، ويكون بذلك قد قذف الناتج المحلي ما يُعادل ٦٪ من ناتج الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨١م، ليصل إلى ٧٠٪.

حالياً بعد أربعين عاماً فقط، وهي مرشحة بقوة لتخطي الناتج المحلي لأمريكا خلال السنوات العشر القادمة، كما نجحت الصين في نهضتها الاقتصادية المثيرة للجدل والاهتمام في آنٍ واحد في تخطي أكبر الدول الاقتصادية على مستوى العالم، فقد تجاوز الاقتصاد الصيني نظيره الفرنسي عام ٢٠٠٥م، وأصبح خمسة أضعافه عام ٢٠٢١م، فيما يمثل ثلاثة أضعاف الاقتصاد الياباني، وأربعة أضعاف الاقتصاد الألماني، ليس ذلك فحسب فالصين أكبر مصدر وثاني أكبر مستورد عالمياً محققةً بذلك نجاحاً كبيراً على مستوى التجارة الخارجية، بالإضافة إلى أنها شريكٌ تجاريٌّ هام لـ ١٣٠ دولة في العالم، طفرةً اقتصاديةً عملاقةً كسرت كل الحواجز والتحديات أبهرت العالم وغزت اقتصاده، ولم لا وهي أكبر مُصدِّر حيث تجاوز حجم تجارتها الخارجية كصادراتٍ ووارداتٍ ما قيمته ٦ تريليون دولارٍ أمريكي في مطلع ٢٠٢٢م، فيما كانت ٤ تريليون دولار في عام (٢٠١٣م) حين تولى الرئيس الصيني الحالي شي جين بينغ السلطة في بلاده، مما يؤكد أن الاقتصاد الصيني يسير بخطاً متسارعة نحو تحقيق النمو تحت قيادةٍ سياسية تسعى بكل قوةٍ لمصلحة وطنها وأبنائه، وتحقيق إنجازات اقتصادية كبرى اعتبرها الآخرون ضرباً من ضروب الخيال، بالطبع هذا النجاح لم يكن ليأتي من فراغ، ومن المؤكد كان له كبواته وانكساراته وأزماته المتعددة أو نتائجه

السلبية، ولكن هذا الإبهار الاقتصادي والطفرة الصينية غير المسبوقة ما كانت لتحدث لولا تضافر جهود الجميع قيادة وحكومة ومعارضة وشعباً صبر وكافح واجتهد لتحقيق مبتغاه¹.

وبعد تلك الجهود التي كرّستها الصين لتُصبح رائدة عالمية على المستوى الاقتصادي، عادت لتظهر من جديد كقوى اقتصادية عالمية، حيث أصبحت قطباً عالمياً في العديد من المجالات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، ووصلت إلى مرحلة إمتلاك القدرة والإمكانيات في تبني وطرح المبادرات والاستراتيجيات الدولية بهدف تعزيز التنمية الاقتصادية، وضمان أمنها القومي ومصالحها المتعددة، وتحمل مسؤوليات دولية حقيقية، ومن الاستراتيجيات التي قامت الصين بطرحها استراتيجية جيو اقتصادية - استراتيجية ترفع راية التنمية السلمية عالياً على أساس تاريخ طريق الحرير القديم، والمبادرة إلى شراكة التعاون الاقتصادي بين الدول في القارات الثلاثة "آسيا، أوروبا، أفريقية"، في سبيل البناء المشترك لرابطة (المصلحة والمصير والمسؤولية) المشتركة والتي تتمثل في الثقة السياسية المتبادلة والاندماج الاقتصادي

1 من أبرز عوامل نهضة الصين ما نلخصه في نقاط معدودة وواضحة كالآتي:

- قيادة الحزب الشيوعي الصيني البلاد في فترات عصيبة وتحمله لكافة مسؤولياته التاريخية أمام أمته وشعبه، فنرى الأب الروحية للنهضة الاقتصادية في الصين (دينغ شياو بينغ) وهو يكافح لتخليص بلاده من الفقر وفتح أبوابها للتعامل الخارجية بغرض الاستثمار، حيث من أشهر مقولاته " لا يهم أن تكون القطعة سوداء أم بيضاء، المهم أن تآكل الفأر"، في إشارة لضرورة تحقيق التنمية الاقتصادية بأي طريقة، وكذلك مقولته " الفقر ليس ميزة الإشتراكية"، والتي كان يقصد من خلالها أن هدف الإشتراكية إسعاد الشعوب وتوفير حياة كريمة لهم وليس مجرد الوصول لسدة الحكم، وكذلك دور الرئيس الحالي (شي جين بينغ)، في تحقيق النمو الاقتصادي بصورة سريعة واقتلاع الفساد من جذوره والقضاء على الفقر بشكل نهائي، كما أعلن بينغ في نهاية ٢٠٢٠م، حيث انتهت الصين فقر ٨٠٠ مليون نسمة، خلال العقود الأربعة الماضية.
 - تحديد الأولويات والأهداف المنشودة والعمل الجاد المتقن على تحقيقها، حيث كانت التنمية أول أهداف جميع قيادات الحزب الذين تولوا قيادة البلاد واعتبروها القضية المحورية في التخلص من الفقر نهائياً، حيث بدأت الإصلاحات بالتنمية الزراعية والاقتصادية وإنشاء نظام حوكمة الشركات الحديثة واستكمال البنية التحتية، حيث يقول المثل الصيني الشهير " تهديد الطرق بداية الثراء لا استقرار بدون زراعة لا ثروة بدون صناعة".
 - مواكبة العصر وإنهاء الاختلافات العقائدية وحرص الحزب الحاكم على تصعيد قيادات شابة من أبنائه لضخ دماء جديدة في الموضوعات الخاصة بالحكم والتنمية على حِرِّ سواء، مع الاهتمام بالتعليم لتشجيع على روح الابتكار والإبداع حيث يزداد الإنفاق على التعليم والبحث العلمي سواء من ناحية الأسر أو الدولة ذاتها، وهو ما أدى لتقدم شركات كثيرة في مجال الاتصالات والتسويق الإلكتروني والطاقة المتجددة والذكاء الاصطناعي وغيرها من المجالات المختلفة.
 - اتباع الدولة لأسلوب تدريجي في عملية الإصلاح من خلال إجراء الاختبارات اللازمة قبل تنفيذ أي سياسة قوانين جديدة بغرض منع التصادم وكبت المخاطر التي قد تحدث نتيجة التغيير المفاجئ مع الحفاظ الدولة على الاستقرار في الحكم باعتباره ضماناً للتنمية مع التمسك بالديمقراطية، وكذلك إتاحة الفرصة لشركات القطاع الخاص بالمشاركة بالأدوار الرئيسية في التنمية جنباً إلى جنب مع الشركات المملوكة للدولة.
 - تطوير وتحسين العلاقات الخارجية مع كافة الدول بما يسمح بليجاد مناخ اقتصادي قادر على المنافسة والاستثمار في كافة دول العالم، مع نجاح الدولة في جذب العديد من الاستثمارات الخارجية، واستضافت على أراضيها كبرى الشركات العالمية، مما كان له أثر كبير على الشركات المحلية التي استفادت من هذا التقدم التكنولوجي وأصبحت تلك الشركات قادرة على المنافسة الدولية، ومن أهم تلك العلاقات مبادرة الحزام والطريق التي أطلقها الرئيس الصيني شي جين بينغ، لتحقيق التنمية المشتركة مع الدول النامية، وتفعيل بند المنفعة المتبادلة بين تلك الدول في مشاريع البنية التحتية والإنتاج الصناعي.
- كل ذلك أدى لحدوث تحول شامل في المجتمع الصيني نتيجة تحقيق نهضة اقتصادية غير مسبوقة في تاريخ الدول، لذا فهي مثال يُحتذى به وتجربة مهمة جدية بالدراسة والتطبيق كونها مصدر إلهام لدول العالم لتحقيق التنمية خلال فترة زمنية ليست بالطويلة في تاريخ البلاد، التي كانت مُثلهة لتحقيق نهضة اقتصادية كبرى في كافة مناح الحياة، وأيضاً بالنسبة للشعوب الحالية بمستوى معيشي أفضل، مع الأخذ في الاعتبار أن تلك التجربة الصينية ما هي إلا محل دراسة فقط للدول الأخرى ولا تقدم حلاً جاهزة للتطبيق، فكل دولة ترغب في النهضة والتنمية عليها الاستفادة فقط من الخبرات السابقة لدول مماثلة حققت نجاحات اقتصادية، فظروف وتحديات كل دولة تختلف عن الأخرى، ولكن قد تكون التطلعات واحدة، فالجميع يأمل في عيش حياة كريمة بكافة متطلباتها، لكن الأهم هو ضرورة السعي من قبل المسؤولين وصُنّاع القرار لتحقيق تطلعات شعوبهم ومُبتغاهم المرغوب من تقدم ونهضة لدولهم دون النظر لمصالح ضيقة أو لتغليب أي أمر آخر سوى مصلحة الشعوب والأوطان.

والتسامح الثقافي، فالصين تملك من المال ما يكفي لإقراضه للعالم، فلماذا لا تُقرضهم المال وتحصل على الامتيازات التي تُريدها، وبذلك لن تسفك الدماء ولن تطلق الصواريخ والرصاص بل ستدفع وتتوسع أكثر لنعود الصين إمبراطورية من جديد ومن هذا المنطلق أعلن القائد الجديد للصين في خريف عام ٢٠١٣م، "شي جين بينغ" وذلك خلال زيارته كازاخستان¹، إطلاقه مشروعاً اقتصادياً استراتيجياً غير مسبوق، وهو مشروع "الحزام والطريق" الذي سيبدأ عصرًا جديدًا وذهبيًا من العولمة²، فهو مبادرة تنموية جيوسياسية وعنصرًا رئيسياً في تنفيذ استراتيجية الصين الخاصة بـ "الانفتاح على العالم"، فمن خلال هذه المبادرة ربطت الصين بين أكثر من ٦٨ دولة³ (باستثمارات تتراوح بين ٤ و ٨ تريليونات دولار)، تستحوذ هذه الدول على نحو ٥٥٪ من الناتج الإجمالي العالمي، و ٧٥٪ من احتياطات البترول، و ٦٥٪ من سكان العالم.

1 احتلت كازاخستان مكانة كبيرة في مبادرة الحزام والطريق، حيث تُعتبر أكبر دولة غير ساحلية في العالم، موقعاً حاسماً في مبادرة الحزام والطريق ويربط موقعها الجغرافي الصين بأوروبا عبر الكتلة الأرضية الأوراسية ما يجعلها ممراً عبورياً حيوياً.

2 لم يكن الرئيس الصيني "شي جين بينغ" أول من أطلق المبادرة، ولكن حينما انطلق الأدميرال الصيني تشنغ خه بأسطوله المكون من ٦٢ سفينة في القرن الخامس عشر الميلادي بسبع رحلات لم يكن يدرك أن تلك الرحلات ستكون ملهمة لحرب جديدة في بداية الألفية الثانية، فتلك الرحلات أخذت الأدميرال الصيني لزيارة عدة دول تقع على سواحل المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقية حتى وصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر. وقد ألهمت تلك الرحلات عدة دول تسعى للسيطرة على التجارة في المحيط الهندي، وبحر الصين، والقرن الأفريقي الذي تمر عبرها ٧٠٪ من تجارة العالم، وكانت بداية ذلك بعد سقوط الاتحاد السوفيتي حينما أدركت الصين أنها ستكون الهدف التالي، لذلك انطلق رئيس الوزراء الصيني الأسبق "لي بنغ" عام ١٩٩٤م، في جولة له في دول آسيا الوسطى في محاولة لإيجاد طرق بديلة لكسر أي طوق يمكن أن يضرب حصاراً عليها، مما أشعل حرباً قاسية هي حرب السيطرة على الموانئ، وإنشاء القواعد البحرية العسكرية التي تتداخل فيها المصالح الاقتصادية والسياسية، وبعد الجولة التي قام بها لي بينغ طرح رئيس الوزراء الياباني "هاشيموتو" سنة ١٩٩٧م، فكرة التعاون بين بلاده ودول آسيا الوسطى وجنوب القوقاز والوصول بها إلى تنمية دولية وسريعة، وطرحته الهند أيضاً عام ٢٠٠٢م فكرة "ممر مواصلات" شمال - جنوب يربط الهند بروسيا عبر إيران والقوقاز. أما الاتحاد الأوروبي فقد اقترح عام ٢٠٠٩م ما عُرف باسم "طريق الحرير الجديد" لمد خط أنابيب ينقل الغاز من آسيا إلى أوروبا بهدف تقليل الاعتماد على الغاز الروسي، فيما اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠١١م استراتيجية طريق الحرير الجديدة التي تهدف إلى بناء شبكة خطوط حديدية لتعزيز التعاون الاقتصادي بين أفغانستان وجمهورية آسيا الوسطى ودول جنوب آسيا، ومع تطور الأوضاع السياسية أدركت الصين أنها محاصرة بسلسلة من القواعد والتحالفات العسكرية الأمريكية التي تمتد من أستراليا إلى الباكستان فاليابان، وأن الفجوة الوحيدة التي تسعى الولايات المتحدة إلى إغلاقها أمام التوسع الصيني السياسي والاقتصادي هي الفجوة التي تمثلها إيران باتجاه البحر المتوسط، وازدادت تلك المخاوف مع الأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م، مما دفع الدكتور "شو شن دا"، نائب رئيس الهيئة الوطنية العامة للضرائب في الصين، إلى طرح فكرة قدمها كسنتراح لوزارة التجارة الصينية تحت عنوان "خطة مارشال الصينية" مثقبتاً الاسم من المبادرة المعروفة لوزير الخارجية الأمريكي "جورج مارشال" لمساعدة الدول الأوروبية في إعادة إعمار ما دمرته الحرب العالمية الثانية وبناء اقتصادها من جديد، وجاءت مبادرة "شو" كرد صيني على الأزمة المالية والركود الاقتصادي العالمي عام ٢٠٠٨م، تقوم الفكرة على استخدام الاحتياطي الاستراتيجي الصيني من العملة لفتح قروض إلى الدول النامية، تُستخدم لبناء مشاريع تنفذها شركات صينية في تلك الدول، ليتم بعدها تطوير الفكرة بعد سلسلة من النقاشات وجلسات العصف الذهني في أروقة مراكز البحث وأوعية الفكر الحزبية والحكومية الصينية لتُصبح بعد ذلك "استراتيجية الحزام والطريق".

3 تبلغ الدول الواقعة على مسار الحزام والطريق ٦٨ دولة، بما فيها الصين ومنغوليا وروسيا، و ١١ دولة جنوب شرق آسيا (إندونيسيا وتايلاند وماليزيا وفيتنام وسنغافورة والفلبين وميانمار وكمبوديا ولاوس وبروناي وتيمور الشرقية)، بالإضافة إلى ٨ دول جنوب آسيا (الهند وباكستان وبنغلادش وسريلانكا وأفغانستان ونيبال والمالديف وبوتان)، فضلاً عن ١٦ دولة بالشرق الأوسط وهي (السعودية والإمارات وسلطنة عمان وإيران وتركيا وفلسطين ومصر والكويت والعراق وقطر والأردن ولبنان والبحرين واليمن وسوريا)، بجانب ١٦ دولة في أوروبا الوسطى والشرقية وهي (بولندا ورومانيا والتشيك وسلوفاكيا وبلغاريا وهنغاريا ولاتفيا وليتوانيا وسلوفاكيا وإستونيا وكرواتيا وألبانيا وصربيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود) و٥ دول بأسيا الوسطى وهي (كازاخستان وأوزبكستان وتركمنستان وقيرغيزستان وطاجيكستان) بالإضافة للدول ٦ رابطة الدول المستقلة وهي (أوكرانيا وروسيا البيضاء وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا ومولدافيا)، وعلى الرغم من أن مشروع الحزام والطريق انطلق لربط الصين بأوروبا إلا أنه اتسع وتجاوز حدود أوراسيا ليضم أفريقية، وأمريكا اللاتينية، ومنطقة الكاريبي، ومنطقة جنوب الباسيفيك.

تقوم هذه المبادرة على أساس استخدام التفوق الاقتصادي للصين في الخارج وتصدير قدراتها القوية في مجال البنية التحتية إلى مناطق أخرى من العالم، فشقت الطرق ومدت سكك الحديد وبناء المنشآت الأساسية لضمان سلاسة الشحن البري والبحري والجوي والممرات العابرة للحدود للطاقة الكهربائية، إضافة إلى توصيل كابلات وشبكات الاتصال التي تُسمى مناطق بـ "طريق الحرير المعلوماتي"، وإنشاء مناطق التجارة الحرة لتنشيط التجارة متعددة الأطراف وتنمية الأعمال التجارية الالكترونية العابرة للحدود والتعاون في تطوير الطاقات النظيفة والمتجددة، وفي الحفاظ على التنوع البيولوجي ومواجهة التغير المناخي والاحتباس الحراري لبناء "طريق الحرير الأخضر".

وبذلك تكون قد أنشأت ممرات اقتصادية متكاملة بشكل كثيف في شكل رؤية استراتيجية وسياسية صينية موسعة تهدف إلى حل التحديات الداخلية والخارجية، عبر بناء شبكة سميكة من البنى التحتية التي تسهل تبادل السلع والمعرفة والثقافة ليس فقط بين الصين وأوروبا ولكن أيضاً بين تلك البلدان التي تشارك فيها ويمر عبرها في أوراسيا والشرق الأوسط وأفريقية وأوروبا الشرقية، ليكون الهدف الأساسي منها هو تسهيل انتقال السلع والخدمات والأفراد لتعزيز التجارة والاستثمار البيئي الإقليمي مع تحفيز التنمية الاقتصادية في نفس الوقت، لتكون بهذا منصة لتعزيز التكامل الاقتصادي، بما يشق مكانة سياسية مهمة للصين عبر هذه الأقاليم وخارجها.

وبالتالي سيوفر طريق الحرير الجديد للاقتصاد الصيني فرصاً لفتح أسواق لمنتجاتها التي لا مكان لها في السوق المحلية المتخمة، و سيؤدي تحسين مرافق النقل والمواصلات إلى تعزيز الصناعة الصينية، بالإضافة إلى أن التجارة مع الدول المتعاونة ستتمكن الصين من الوصول إلى الطاقة والموارد الأولية لهذه البلدان، كما ستوفر الاتصالات الجديدة وصولاً أسهل إلى الصناعات الصينية، وسيضمن بناء البنية التحتية كذلك زيادة الطلب على سلع الصناعات الثقيلة الصينية مثل الحديد والصلب والأسمت والألومنيوم والزجاج التي تعاني من الإنتاج الفائض وغير المُستغل.

تعد هذه المبادرة ثورة ذات نطاق غير مسبوق في الجغرافيا الاقتصادية فهي تُعيد تشكيل الجغرافيا الاقتصادية للصين والبلدان الواقعة على طول طريق الحرير والعالم ككل، فهي استندت منذ البداية إلى نطاق جغرافي يضم أكبر عدد من الدول والأقاليم الجغرافية (شرق آسيا، جنوب شرق آسيا، وسط آسيا، الشرق الأوسط، أفريقية، وسط أوروبا).